مسيلمة

بات مسيلمة وأنكرى لم يطرق جفنه ، يفكر فى محمد اليتيم كيف انتصر ، وصارت له عصبة وقوة ، وكيف سر اعداءه وقد بدا لاعدة ولاعدد ، وهاهوذا يريد ان يكتسح جنوب الجزيرة بعد شمالها ، فتنفرد مضر بالرياسة . لاورب الشعرى ما تذل ربيعة ، ولاينبغى لها ذلك ، وان كان قد دعا لنفسه ، فلم ينفرد بالرسالة ؟ أولست مثله ؟ ولى لسان كلسانه وقوم كقومه بل أشد شوكة . انهم اعراب غلاظ شداد لايعصون ماأمرتهم ، تدفعهم النعرة الى نصرتى ظالما أو مظلوما — والله لأوقدنها نارا ولأكونن صاحبها .

***

دخل عليه صديقه « مجاعة عند انبثاق النور ، ولشد ما أدهشه أن رآه جالسا القرفصاء قد دفن وجهه بين ركبتيه ، فنادى مسيلمة فرفع اليه رأسه فى صمت وسكون وقد بدت من وجهه عينان أدماهما الأرق فسأله مجاعة :

— مابك ياأخى ؟ أسوء اعتراك ؟

— بل الخير كل الخير

— وكيف صممت عن دعائى وقد ناديت مرارا ؟

— ما كنت واعيا

— وما شغلك ؟

— كنت فى فكر أقض مضجعى ، وأطار نومى ، وماأحسب أحداغيرى يقوى على احتماله

— وأخوك الذى أذهب ميعة شبابه بجانبك ، وأخلق ديباجته مقتحما الأهوال بين يديك ؟ ألماتجده لسرك أهلا ؟

— كلاما ذهبت الى ذلك ، وما أردت ان أثقلك بما ينقض ظهرك ، واشركك فى كأس مرة

مادمت تشرب منها ، فكيف تبخل على بها ؟ وهبها كأس المنية

— بارك الله فيك من عشير ، اذن فأصغ الى — أنت تعلم العداوة التى بين أهلنا ربيعة وبين مضر ، وكم أوقدنا الحروب تعدها بأفلاذ أكبادنا وترميها بزهرات اولادنا ، ولم ترض فى حال بالذل وسوم الخسف

— وماذا فعلت مضر بنا ؟ هل اغارت علينا حينا ؟ هل أرسلت شياطينها على عيرنا ؟ هل حمت البيت دوننا ؟ هل وترتنا فى أهلنا أو فى . ماذا فعلت ؟

— مافعلت من ذلك شيئا . ولكنها أوقدت نارا ، وإخال أن السنتها ستمتد الينا ، فيهبط العرش على الفرش ويذهب الولد والمال

— وما هذه الداهية ؟

— ألم تعلم أن محمدا ظهر أمره ، وزهر نجمه ، وكنا حسبناه شرارة ماتضىء الا لتخمد ، وخطبا مايغزل الا ليهون . ولكن خاب فألنا ، فالركبان يتناقلون أنه استحوذ على مابين مكة والمدينة ، والناس يدخلون فى دينه أفواجا ، وأخشى على اليمامة . منزلنا العتيد ومهد الجدود ، أن يأخذها منا على غرة فتذل بعد عزة ، وتبوء بالخسران المبين .

— وماباك أن تفعل ؟

— إن الحديد بالحديد يفلح ، والدعوة بمثلها تقابل ، له الشمال ولنا الجنوب . ليت شعرى لم يكون النبى من مضر ولا يكون من ربيعة نبى ؟ قرب سمعك منى . لابد من الحيلة لقومك حتى يستقتلوا ويطيعوا ، ولابد من السيطرة على قلوبهم حتى ينصاعوا ، ولا يكون ذلك الا بغزو عقولهم وخدعة عيونهم فلا يرون الا مانرى ولا يسمعون الا مانسمع .

— أذن فاعمل كيدك حتى تأتينا بآيتك التى تبهر وتسحر

— ماتظنى عن هذا غافلا — بل إن فكرى ليحلق فى آفاق أبعد ، وكيف أنصب قدرا قبل تهيئه الاثافى ، ومثلى الذى جاب الآفاق وجال فى الاسواق ، ونفذ إلى ماوراء الحيرة والانبار ، واقتحم سواد فارس واجتمع بأوشابها ، فوقف على الاعيب فتيانها وكيد دهاتها واختلط بتجار الهند وعرف حكمتهم واستجلى شعوذتهم — لايخلو من كيد وحيلة ، فكم خدعة عندى يحسبها الاعراب معجزة ، وكذبة يظنونها حقا !

— يالك من داهية ياأبا ثمامة ! وما وراءك بعد ؟

— سأزعم النبوة كمحمد ، وأدعى المعجزة ، ولابد من رده يصدقنى ويشد أزرى . وأظن فيك — بعد مابلوتك — ذلك الرجل

— قد أجبت سؤلك . مادام فى ذلك مرضاة لحى الجدود ، وبر لرفاتهم ، فماذا تريد أن أفعل ؟

— تذيع فى الناس أمرى ، وظهور رسالتى ، وتحشدهم الى دارك بعد غد . ليشهدوا آياتى أليس الموعد بقريب ؟

— بلى ، سيتم ذلك على أحسن حال . الى اللقاء .

° ° °

هب الناس على دار « مجاعة بن مرارة » ، وكانت رحبة الفناء ضمت الوفا من الاعراب وكلهم يشيع فى وجهه السرور ، ويهنىء صاحبه ، لأن الله حباهم نبيا من أنفسهم ، عزيز عليهم ، به رجحت كفتهم ، وأنقذوا من نير مضر وسورة سلطانهم ، وهاهم أولاء يجتمعون ليشاهدوا آياته ، فتمتلىء قلوبهم إيمانا

وفى الأصيل وقف مسيلمة على دكان بصدر المجلس وقد اختفت قسمات وجهه تحت لثامه الغليظ فلم تبد منه الا عينان خبيثتان تدوران فى الجمع الحافل ، وتلحظان فيض العاطفة على الوجوه ، وتقرءان فى العيون الايمان والسخرية . وكان ممتقع اللون ، يرفض جبينه عرقا ، يهوله مايقدم عليه من خطب ويخشى العاقبة . ثم ثبت يده على عكازه التى اعتمد عليها واستفتح كلامه حامداً الله الذى حمى اليمامة وأعزها بنبيها ، وأفاض فى الثناء على أهلها وثباتهم ، وناشدهم أن يعينوه بقوة على محمد شريكه فى الرسالة ، ليستخلصوا نصيبهم من بين يديه . ثم أعلن أنه سيعرض عليهم معجزاته الناطقة برسالته ، لتطمئن قلوبهم . تنفس الجمع الحاشد ، ونظر بعضهم الى بعض متلهفين الى مايأتى به من خوارق ومعجزات ، وكان مسيلمة قد اختفى وراء ستر نصبه بينه وبين الحائط ، فرجع وفى يده قارورة داخلها بيضة ، كان قد أطال انتقاءها فى الخل حتى لان قشرها الأعلى ، فدهنها فامتدت كالعلك فأدخلها قارورة ضيقة الرأس ، وتركها حتى جفت ويبست ، وكلما انضمت استدارت حتى عادت سيرتها الاولى

قال : هاكم آية من آياتى نزل بها على الرحمن ، ترتفع عن قدرة البشر . بيضة كبيرة ، غير مقشرة ، فى قارورة . أجيبونى بآيائكم ، من أدخلها فيها غير ربكم . أم هل فيكم من يفعل من ذلكم شيئا ؟ وناول القارورة أحد الجلوس ، فتقاذفتها الأيدى ، متأملين المعجزة العجيبة ، والبدعة الغريبة .

ثم دار بعينيه فى دار (مجاعة) فرأى زوجا من الحمام مقصوص الريش ، واقفا على عود فى حائط كانت الأعوان قد هيأته لتلك الفرصة ، فالتفت الى مجاعة وقال له :

— إلى كم تعذب خلق الله بالقص ؟ ولو أراد الله للطير خلاف الطيران ما خلق لها أجنحة ، وقد حرمت عليكم قص أجنحة الحمام

فقال مجاعة كالمتعنت — : فسل الذى أعطاك فى البيض هذه الآية أن ينبت لك جناح هذا الطائر الساعة .

— فان أنا سألت الله ذلك ، فطار وأنتم ترونه ، أتعلمون إنى رسول الله اليكم ؟

— أجل : أجل

— أريد أن أناجى ربى ، وللمناجاة خلوة فانهضوا عنى ، وإن شئتم اختليت به وراء الستر ودعوت الله ثم خرجت به اليكم وانى لجناحين

ولما خلا بالطائر أخرج ريشا كان قد هيأه ، فأدخل كل ريشة مما كان معه فى جوف ريش الحمام المقصوص من عند المقطع — ولما أتم جناحيه خرج به وأرسله على رءوس الناس فرفرف عليهم — فصاحوا معجبين ، ونهض منهم خلق كثير ، يبايعه ويشهد الله على ما فى قلبه ، وانفض السامر وقلوبهم شتى ، ولكنهم جميعا أخذوا يفيضون فيما رأوا وما سمعوا .

وفى غداة اليوم التالى دخل مجاعة على مسيلمة ، فرآه مشرق الوجه ، فما لمحه مسيلمة حتى اندفع اليه قائلا :

— ماذا كان من أمر القوم بعد ما رأوا الاعاجيب أمس ؟

— منهم المصدق ومنهم المكذب ومنهم دون ذلك . ولا يخفى عنك أن فيهم من رأى العجب من آياتك فى سياحاته وتجاراته على أيدى الكهان والسحرة وغير هؤلاء .

— وما ذا ترى ؟ — محمد جاء بقرآن ليعقل به ألسنة العرب ما بقيت فى افواههم ، وليسلبهم بسحره ألبابهم ، ولا أرى الا أن تصنع كلاما ككلامه .

— ما أبعد روق الشاخ على الطرف اكلما صعدته اليه ارتد البصر حسيرا ، هذا يا صاح يعقد لسانى — ولا أستمك شيئا — انه جل عن ان يبدعه قلب من لحم ، ولسان من عضل ، وإنما هو آية كخلق الله تعجيزا وقطربنا ، كما تشهدنا على عجزنا .

— ولكن قومك يطلبون منك آية كقرآن محمد ، وهم لد الخصام . وما دمت زعمت مشاركته فى رسالته — فهات كما بك مثله بيمينك ، وإلا عبثت بك العيون .

— حق ما تقول ، إذن نحاول ، ولكن أين الظهير ؟

— ربما تكون العناية قد لحظتنا ، فقد قدم علينا صباح اليوم رجل من المدينة على دين محمد حسن السمت ، سليم الطوية ، قدم فتيان من العشيرة أن يقتلوه ، ولكنى استبقيته لعلنا نستفيد منه فى أمرنا . فيزعم أنه صاحب الرجل ، وقد حفظ كلامه ، وقرأ بعينه صفحة جهاده .

— وكيف نملك قلبه ؟

— بالمال .

— وما يدريك الوصول اليه ؟

— بلوته فوجـــدته رطب العود قريب الغور

— وما ذا نأخذ منـــه ؟

— يسمعنا قرآنه فنقيس على الآيات مثلها ، ونصب فى القوالب ما يملؤها ،

— كيف والعرب صيارف كلام ، يقلبون الكلمة ويحكونها كالدينار لايخدعهم وشمها ، أو يخطف بصرهم وسمها

— اجتهد أن تكون مزيفا ماهراً ، فهذا ما لا بد منه مادمت تصر على رأيك

— نعم لابد من صنعاء ، ولكن ألا ينفعنا فى سبيل آخر ، فنلقى اليه أن يزعم أن محمداً أخبره بأنى شريكه فى رسالته ، وقد بعثه الى بذلك النبأ .

— نعم ما رأيت ، وأظن أن الابل والشاء كفيلة بأن تركبه الصعبة وهو الذلول كما أعلمتك .

***

اجتمع نفر من بنى حنيفة فى ساحة من القرية تحت شجرة ليستروحوا بفيئها ساعة الهجير ، وهم إخلاط فى أسنانهم ونزعاتهم ، ابتدأ أحدهم يقول :

— بالامس قدم رسول محمد فأعلن على رؤوس الاشهاد أن مسيلمة شريكه فى رسالته — فنهينا للمامة بصاحبها .

آخر — الآن لزمته الحجة ، فأما أن يعطينا نصيبنا فنسالمه ، واما خضنا معه حربا ضروسا ، فتاءب شيخ من الجلوس وقال :

ومايدريكم أن الرجل رسول محمد ، وأنه أرسله لذلك الشأن ، وكيف جاء اليوم وقد ظهر أمر محمد من سنين ، أبعدماجاهد وكابد ، وصار له النقض والابرام ، يعلن شركة مسيلمة ؟ فهلا كان الأمر والخطوب به مكتنفة ، والاعداء له متربصة ، فيستعين بشريكه ، ويحمله نصيبه فى جهاده ما أحسب ذلك الاخدعة .

فدارت عيون القوم وقد انبسط فريق منهم لهذا الكلام الذى أجلى المبهم فكان كالبرق فى الظلمات وانقبض آخرون . ولكن الشيخ أخذ يقول :

وما ذلكم الكلام الذى ينحله الله ؟ ألعـــجبكم قوله فى الضفدع : « ياضفدع بنت ضفدعين . نقى ماتنقين ، نصفك فى الماء ونصفك فى الطين ، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين » . أى عجيبة ابانها فى الضـــفدع ، وأى حكمة اظهرها ؟ أمرها بالنقيق فهل رآها امسكت عنه ؟ ولعـــله أعجب بنغماتها فأثارت أشجانه ، وحركت بيانه ، فصار يستوحيها ، ويطلب المزيد من هديرها .

— إن انكرت بيانه ياعم فكيف تنكر آياته الشاهدة التى لمستها أعيننا . أتراها قد خانتنافأرسل منها الكذب الى نفوسنا وخيل الينا .

قد كنت فى ذلك السامريا ابن أخى ، فهاج سخريتى بكذبه الفاضح ، أرأيت البيضة والقارورة يزعم أن الله أدخلها ! فلم أدخلها وراء أظهرنا ولم لم يخرجها أمامنا ؟ ورأيت الحمام المقصوص كيف زعم أن الله ينبت له ريشا فى ساعة . ما باله لم يسأله ذلك أمام أعيننا ؟ وهل لا يجيب الله داعيه الا بخلوة ؟ فتحوا أعينكم ياقوم فلاتضلوا انه لعمرى ليس بمتنبىء صادق ولا بكذاب حاذق .

— أصوات : مه مه !

أيها الشيخ لقد كبرت . ولئن كان كما تزعم لنتبعنه ، فكذاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر

— قد نصحت لكم نصيحتى وأنا شيخ كبير قد تقلب وجرب . وأخشى أن تسندوا باطلا فيقع عليكم ، أو تشعلوا نارا فتكونوا وقودها ،

— فنظرة إلى محمد وقرآنه تجدون اللبن الصريح . ولعمرى إن نفسى لتنزع إلى دينه كما ينزع الفطيم إلى ثدى أمه . ولكنى أخشى . . .

— فتيان ينهضون — لقد خرف الشيخ

آخرون يأتون معه — لا ضير عليك من هؤلاء فأنهم سفهاء يتبعون أول ناعب .

فتى يتحدث اليه — قديما ظننت فى مسيلمة البركة فاحضرت له وليدى ليباركه غداة يوم فدعا له بطول العمر فما جاء الأصيل ألا وقد كفنته بثوبه الاصفر

آخر — وجارنا أمسى له بغلامه فمسح له رأسه ، فما مضت أيام ثلاثة حتى لف فيه القرع

— وأمتنا المريضة ذهبت اليه لتستشفى فكأنها ذهبت الى حتفها

— وأنا أعتقد ضلاله . ولكنه يكبر على نفوسنا أن تمد أيدينا لمحمد ، كما يكبر علينا أن نحاربه أو نؤذى قومه . ونخاف الفتنة اذا ماغزانا فلا ندرى أنحارب معه اخوتنا ، ونقضى على بنى عمومتنا ، أم نحاربه وهو أقرب الى قلبنا ، أم نمسك ونعتزل فيظن بنا الجبن والعار ، ونصير مضغة الالسنة فى حينا ؟

الشيخ — حقا أنها لحيرة يابنى . فلننتظر ماتأتى به المقادير ، ويفعل الله مايريد .

٠٠٠

سمع مسيلمة بقدوم خالد اليه فاستنجد ببنى حنيفة ، فتبعه أربعون ألفا لعزته وعصبته ، وفر قوم من وجهه، وكرهوا أن يشهدوا مقارعة الباطل للحق ، وقبعوا فى واد ظاهر القرية وأخذوا يتجسسون الأخبار فرأوا قادما عليهم

— مم قدمت يافتى ؟

— من القرية .

— أشهدت خالدا وصحبه ؟

— كنت بين ظهرانيهم .

— ما عندك فيه ؟

— انه ليعسوب قريش وفتاها ، ولئن طاولته الكواكب لأحسب أنه ينزلها من منازلها ، ما تقولون فى عقل سديد ، وقلب شجاع ، وأمر مطاع

— وكيف رأيت صحبه ؟

— شباب مكتهلون ، اشداء على أعدائهم ، رحماء بينهم ، ابصرتهم موهنا مثنية أصلابهم على كتائبهم ، فسمعت منهم دوى النحل ، وأزيز المرجل ، وشهدتهم فى المعمعة ينظرون الشزر ويقذفون الجمر . فرأيت النار المحرقة ، ليستعجلوا حتفهم مرضاة لربهم طامعين ، فى الجنة والحرير ، والملك الكبير .

— وما فعل مسيلمة بهم ؟

— قارعهم فلما أثخنوه جراحا ولى ظهره واستقبل (عقرباء) وتحصن بحديقته

— تلك حديقة الموت ، وهل حسب القصر يضم جيشا — انه لكثير

هو ما تقول — فتقدم خالد اليهم بجيشه ، ووضع السيف فى رقابهم . فهلك مسيلمة ومشيخة قومه ونادى مناد : الله أكبر

— وما فعل قومك بعد ؟

— دخلوا فى دين محمد أفواجا وسموا مسلمين . وقد تركت أكابرهم يتحملون الى أبى بكر ليبايعوه ويشهدوه على اسلامهم .

— الآن تكون معهم .

أبو بكر — ويحكم ، ماهذا الذى استنزل منكم ما استنزل ؟

— ياخليفة رسول الله لقد كان الذى بلغك عما أصابنا ، كان أمر لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه

— هل فيكم من يحفظ من اسجاعه ؟

— أجل — ياضفدع بنت ضفدعين . . .

— ويحكم ان هذا لكلام ماخرج من إل ولا بر ، فأين يذهب بكم ؟

— بربك حسبنا عذلا . كان ما كان ، واليوم تبنا وأنبنا واشهد بأنا مسلمون .

احمد احمد التاجى

مدالية
المعرض العربى
الثانى

زوروا معروضاتنا
بالقسم المصرى
بالمعرض العربى الثانى
بالقدس الشريف

مدالية
المعرض العربى
الثانى

زوروا القسم المصرى
بالمعرض العربى
وسجلوا أسماءكم فى
الكراسة الخاصة
لترسل لكم عيناتنا